خطبة صلاة الجمعة 30/8/2024 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال، في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(تربية الآباء أولادهم)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿واللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وحَفَدَةً ورَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: 72].

وقال سبحانه في وصف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: 74].

أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنه: سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**كلكم راع ومسئول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته**»، قال: فسمعت هؤلاء من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحسِب النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**والرجل في مال أبيه راع وهو مسئول عن رعيته، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**».

وأخرج الإمام الترمذي عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**خيرُكُم خيرُكُم لأهْلِهِ، وأنا خيرُكُم لأهْلِي**».

هذه الخطبة السادسة عشرة في سلسلة خطب عنوانها: (**الحياة الأسرية**)، تتحدث عن أهمية الأسرة وقِيَمِها وطريقةِ بنائها في الإسلام وحقوق وواجبات أفرادها وخطط أعداء الإنسان في هدمها وطرق حمايتها.

عنوان خطبة اليوم: **تربية الآباء أولادهم**

في القرآن الكريم سور تَسمّتْ بأسماء الأنبياء: نوح وهود ويوسف وإبراهيم ومحمد صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين، ولكن لفتني عنوان سورة لقمان، فالمعتمد عند العلماء أنّ سيدنا لقمان ليس نبياً، فلماذا إذن تسمى سورةٌ في القرآن الكريم باسمه؟!

أكان كثير الصلاة أو الصوم أو الصدقات، أكان كثير التلاوة أو الأذكار أو الدعوات؟!

كل هذا لا نعرفه، ولكن تشير السورة إلى أنّ سيدنا لقمان عليه السلام كان أباً يعظ ابنه بحكمة، ووالداً يربي ولده بفطنة، ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13].

﴿يَابُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: 16-17] إلى آخر الآيات الكريمة.

فكأنّي بالقرآن الكريم يشير للآباء الذين يعتنون بتربية أولادهم بأنّ أسماءهم جديرة بأنْ تكون عنوان سورة في القرآن، لفضل التربية وعظيم أثرها في ترابط الأسرة وقوتها ونجاحها.

أخرج الإمام الترمذي بسنده عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَأَنْ يُؤَدِّبَ الرَّجُلُ وَلَدَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ**» قال المناوي في "فيض القدير": (لأنه إذا أدبه صارت أفعاله من صدقاته الجارية وصدقة الصاع ينقطع ثوابها وهذا يدوم بدوام الولد).

أيها الآباء الكرام:

تواتر عن المربين والمؤدبين أهميةُ الأب في تربية الأبناء، وخطورةُ انسحابه من تربيتهم، وهذا رسول الله ﷺ، مع مسؤولياته الجسام وحمله هم الأمة وهمَّ إسعادها في الدنيا والآخرة، لم يُغْفِل حقَ أولاده وأحفاده في التربية، يروي الإمام الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَمُرُّ بِبَابِ فَاطِمَةَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ إِذَا خَرَجَ إِلَى صَلَاةِ الفَجْرِ يَقُولُ: «الصَّلَاةَ يَا أَهْلَ البَيْتِ» ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33].

ستة أشهر في كل فجر يقرع ﷺ باب بيت ابنته وصهره ليدعوهما لصلاة الفجر من دون كلل ولا ملل، ويتلو عليهم كلام الله يحفزهما على الإقبال على الله.

وفي البخاري يأخذ الحسن بنُ عليٍّ تَمرة من تَمر الصدقة، فيجعلها في فِيهِ. فيقول رسولُ الله ﷺ: «كِخْ، كِخْ، إِرْمِ بها؛ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لا نأكل الصدقة؟» لقد كان عمر سيدنا الحسن يومها سنتين أو قريباً من ذلك ويتابعه على رسول الله ﷺ على حبة تمر.

ويروي الحاكم في مستدركه عن السيدة عائشة عن سيدنا الحسن يقول: (عَلَّمَنِي رَسُول اللَّهِ ﷺ كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي الْوِتْرِ: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لا يُذَلُّ مَنْ وَالَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ»).

فإذا علمتم أنّ عمُر الحسن عند وفاة النبي ﷺ كان ثماني سنين تفطّنتم أنّ رسول الله ﷺ مع مسؤولياته العظام وهمومه الجسام يجلس إلى سبطه الحسن وهو في السادسة من عمره أو السابعة يعلمه دعاء القنوت.

لقد صار الحسن والحسين بتربية رسول الله ﷺ سيّدَي شباب أهل الجنة، وصارت أمهم السيدة فاطمة واحدة من أربع نساء هن سيدات أهل الجنة.

إنها تربية الآباء أولادهم، يتابعونهم في مصدر دخلهم ليكون حلالاً، ويعلمونهم شؤون دينهم ليقدموا لهم بالتربية سعادة الدنيا والآخرة.

كتب الدكتور سعيد البوطي متحدثاً عن تأثره بتربية والده الشيخ الملا رمضان رحمهما الله:

لما ناهزت الحلم مضى بي والدي إلى دار الشيخ حسن حبنكة رحمه الله وعهد بي إليه وقال لي: اعلم يا بني أنني لو عرفت أنّ الطريق الموصل إلى الله يكمن في كسح القمامة من الطرق، لجعلت منك زبالاً، ولكني نظرت فوجدت أنّ الطريق الموصل إلى الله هو العلم به وبدينه، فمن أجل ذلك قررت أن أسلك بك هذا الطريق.

ووقعت هذه الكلمات في قلب الدكتور سعيد، وأخذت به ليكون حاملاً لواء الدعوة إلى الله والدلالة عليه منافحاً عنه طيلة حياته.

يقول الدكتور البوطي رحمه الله: (كان الجانب المتميز في تربية والدي لأهله وأولاده أنه يذكرهم بالله في كل مناسبة، ويجعل من كل حال يصيرون إليه أو يتقلبون فيها مناسبة لتذكيرهم بسطوة الله أو برحمة الله أو بكرمه وإنعامه.

كان إذا وضع الطعام واجتمعنا على المائدة معه أمرنا جميعاً أن نجلس جلسة أدب حتى لكأننا مائلون من هذه المائدة أمام الله... ويقول لنا معدِّداً ألوان الطعام الذي أمامنا: هذا لون وهذا لون ثان وهذا ثالث وهذا رابع، ألا تسألون، ماذا صنعنا لله عز وجل ومن نحن وما قيمتنا حتى يكرمنا الله بهذا كله ثم يردد قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: 8].

كان الصغار والكبار يتأثرون بهذا التذكير، وكم شعرت بل شعرنا جميعاً، ونحن نأكل أننا في عبادة من أجل العبادات.

ومنذ عشرات السنوات كان رحمه الله يجمعنا على ورد من ذكر الله صباح كل اثنين وخميس بعد صلاة الفجر، فكنا نجتمع إليه صغاراً وكباراً، فيبدأ ويبدؤون بذكر (لا إله إلا الله) مائة مرة ثم ينتقل بهم إلى ذكر لفظ الجلالة (الله) مائة مرة ثم يقرأ ويقرؤون معه حزب الإمام النووي، ولا بد أن يوزع عليهم بعد ذلك ولو شيئا رمزياً من الدراهم اليسيرة والحلوى. وكان يوصينا جميعا ألا ندع هذا الورد الجماعي في هذا الميقات بهذا الشكل.

يقول الدكتور البوطي وله من العمر خمس وستون سنة يوم قال هذا الكلام: وإنني لأحمد الله عز وجل أن وفقنا جميعاً لأن نكون إلى هذا اليوم ملتزمين مثابرين على النهج ذاته وفي المواقيت ذاتها.

أيها الإخوة:

إنّ تربية الآباء أولادهم سعادةٌ للأصل والفرع في الدارين، وكم يهنئ الوالد بصلاح ولده وفلاحه، وإنّ مما يبقى من عمل الوالد بعد موته ولداً صالحاً يدعو له، ومفتاحُ صلاح الأولاد وفلاحهم بعد توفيق الله تعالى التربية الأسرية.

أيها الإخوة:

هذا حديثي لكم عن تربية الآباء أولادهم، واذكروا أنّ الزواج عبادة، وأنّ الحفاظ على الأسرة دين، وأنّ دعم الأسر القائمة والقادمة صدقة جارية.

والحمد لله رب العالمين